

الفكر السياسي عند الحضرمي الأزوكي "ت 489هـ"، المضامين والمرتكزات

د. اسماعيل ولد شعيب

أستاذ محاضر، جامعة نواكشوط

يسعى هذا العمل إلى إضاءة جوانب مهمة من الفكر السياسي للإمام الحضرمي المرادي قاضي المرابطين، وذلك من خلال كتابه "الإشارة في تدبير الإمارة" وهذا الكتاب تتجلى قيمته التوثيقية كونه يقدم لنا نبذة عن الفضاء السياسي ونشأة الدولة المرابطية في الصحراء، والبيئة الاجتماعية التي صقلت فكره وموهبته. لم ينل الحضرمي من اهتمام الدارسين الشيء الكثير سواء على مستوى الدارسين القدماء أم المحدثين، وكلما نجد عنه عبارة عن معلومات مشتتة وتراجم مقتضبة. على الرغم من أنه عاش أزهى فترات تاريخ الدولة المرابطية في بلاد المغرب والصحراء. إن المعلومات التي ضمنها الإمام الحضرمي كتابه من حيث أصالتها الفلسفية وحصافتها الفكرية أو من حيث ملامتها لواقعنا المعاصر الذي يحتاج إلى أطروحات سياسية تحقق له أصالته وتميزه.

Résumé Le présent travail est une contribution à l'enrichissement du débat scientifique que connaît la scène politique et culturelle en Mauritanie. Si ce débat n'a pu à ce jour tranché de façon claire la système et le projet politique des almoravides, la pensée politique d'El hadrami, elle a proposé les grands axes de la politique de ce savant. En effet le travail que nous présentons ici met en exergue les dimensions saillantes de la pensée politique d'Elhadrami (mort en 489 H) notamment dans son ouvrage de référence : « El Ichara fi tadbiri el imara » : littéralement de l'art de gouverner.

Elhadrami traite dans ce livre du champ et de la genèse de l'Etat almoravide en analysant sa structure sociale avant de s'attarder sur les vraies raisons politiques permettant la gouvernance de l'Etat. Il place sa démarche sous trois angles : la première, c'est la raison qui guide pour lui vers le bon chemin. La deuxième, c'est la notion de la tradition ou la coutume qui peut façonner la politique sociale d'un Etat. Quant au troisième volet, c'est la conduite du politique et son incidence sur la politique de gestion de l'Etat. Le moins que l'on puisse dire 'est qu'Elhadrami jette ainsi les bases de l'organisation politique de l'Etat. Il met à la disposition de l'autorité politique l'opportunité de choisir le meilleur modèle de pouvoir.

إن الجهود العلمية المتوفرة حاليا عن الحضرمي هي بالأساس: (مخطوط كتاب الإشارة في تدبير الإمارة، مع بعض الاهتمامات الأخرى الأقل أهمية). وبذلك يكون حجر الزاوية في اهتمامنا موجها نحو كتابه المنوه عنه. ولن أكون معنيا بذلك المخيال الشعبي المشحون بالأساطير، وإن كنت أؤمن بأن الله قد يخص بها من يشاء من عباده الصالحين.

يسعى هذا العمل إلى قراءة النص العلمي المتوفر بغية استلهام ما يمكن استلهامه منه في فضاء صيرورتنا الفكرية والسياسية المعاصرة، والتي هي في أمس الحاجة للعودة إلى بعض الجوانب المشرقة من تراثنا الفكري والعلمي، والذي لا يزال في بعض جوانبه ينتظر جهودا علمية مخلصا يقوم بها باحثون وطنيون لإخراجه من زوايا الإهمال من جهة، ومن جهة أخرى الوقوف على مختلف الدلالات والمضامين التي يحيل إليها. لاسيما وأن المفكر موضع الاهتمام قد أنجز أطروحة سياسية بالغة الأهمية إن من حيث أصالتها الفلسفية وحصافتها الفكرية أو من حيث ملامستها لواقعنا المعاصر الذي يحتاج إلى أطروحات سياسية تحقق له أصالته وتميزه.

ومن الجدير بالملاحظة هنا أن الجهود العلمية المهمة بالتأريخ لفكرنا قد أفضت إلى فئتين من المهتمين:

- فئة تتأفح بحرارة عن التراث الوطني وتعتبره عملا فريدا يعود إليه الفضل كل الفضل في تقديم المجتمع "الشنقيطي" الموريتاني إلى الآخر باعتباره مبدع الثقافة الصحراوية، وحامل لواء ديمومتها، ورائد أساليبها الفريدة (المحطرة/ الجامعة).

- فئة أخرى تعتبرها مجرد ثقافة مروية لمجتمع بدوي معزول ولا ينبغي بالتالي منحها من الأهمية أكثر مما تحتل¹.

وللرأيين بعض من الوجهة. فهناك جهود ليست إلا وريقات لقصيد أو بعض منه، أو حاشية على مجموعة حواشي سبقتها. وأخرى أنتجت فكرا، وثقافة وحضارة، والحضرمي أحد أعلامها البارزة².

لقد انصبّ اهتمام أهل الفكر والرأي على الإشكالية السياسية في عصره، وقدموا لها حولا تنسم بالأصالة والتميز، حين انفجرت أزمة سياسية عاصفة في حاضرة دولة أميره المرابطي، فوجد نفسه باعتباره مستشاره الفكري معني بتقديم تصور علمي وعملي لتجاوزها. فكانت المحصلة مشروعا سياسيا يعالج مختلف بنى الدولة، إن على المستوى التنظيري العام، أو على المستوى التأسيسي الإجرائي، أو على مستوى الاستمرارية، وهو مشروع يجب الوقوف عنده بغية مد جسور التواصل بين الأمس واليوم.

أولا- الفضاء التاريخي والسياسي لنشأة الدولة المرابطية:

لقد عرفت بلاد المغرب الأقصى في بداية النصف الأول من القرن الخامس هجري انبعاثا دينيا، وسياسيا دشنته حركة المرابطين الجهادية التي كان مهدها الأول "موريتانيا" حاليا.

وكان لحركة الانبعاث هذه تغيرات جذرية على المستوى السياسي والاقتصادي والاجتماعي والفكري، بفعل المد المتواصل للدولة المرابطية وبعده عبد الله بن ياسين (ت: 451هـ) المدشن الفعلي لهذه الدولة بفضل العلاقة الخاصة

1- إسماعيل ولد شعيب، الخطاب السياسي لدى الحضرمي الأزوكي، دراسة تحليلية نقدية مقارنة في فكر أبي بكر محمد ابن الحسن المرادي الحضرمي، المطبعة الوطنية، 1997، ص 7.

2- إسماعيل ولد شعيب، المرجع السابق، ص 7.

التي ربطته بيحيى بن إبراهيم الذي عمل على الاستعانة به بوصفه فقيها ومرشدا دينيا وسياسيا. مما أتاح له أخذ دور مهم في سياق تطور المجتمع والدولة المرابطية.

لقد دشّن ابن ياسين جهاده الديني بتبني إيديولوجيا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وبواسطة إقامته لرباط لهذا الغرض¹، توافد عليه الطلبة، ليتم إعدادهم لتأسيس الدولة الجديدة وبدأ يخاطبهم: "يا معشر المرابطين إنكم جمع كثير، وأنتم وجوه قبائلكم ورؤساء عشائركم، وقد أصلحكم الله، وهذاكم إلى الصراط المستقيم، فوجب عليكم أن تشكروا نعمة الله عليكم وتأمرؤا بالمعروف وتنهؤا عن المنكر وتجاهدؤا في سبيل الله حق جهاده"².

ولم يطل الانتظار كثيرا حتى فعل تحريض ابن ياسين فعله في تلامذته الذين ردؤا عليه بقولهم: "أيها الشيخ المبارك مرنا بما شئت تجدنا سامعين مطيعين" ونتيجة لهذه الاستجابة خاطبهم: "أخرجؤا على بركة الله وانذروا قومكم وخوفؤهم عقاب الله، وأبلغؤهم حجتة، فإن تابؤا ورجعؤا إلى الحق، وأقلعؤا عما هم عليه فخلؤا سبيلهم. وإن أبؤا عن ذلك وتمادؤا في غيهم ولجؤا في طغيانهم استعنا بالله تعالى عليهم، وجاهدنا هم حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين"³.

وتعتبر سنة (434هـ) هي البداية الفعلية لتدشين ابن ياسين لجهاده، حيث تمكن صحبة أميره من السيطرة على الصحراء ثم التوسع شمالا وجنوبا. وأثناء ذلك توفي الأمير يحيى بن عمر (ت480هـ)، فقام ابن ياسين بأخذ البيعة لأبي بكر بن عمر. بيد أن الأجل لم يمهل ابن ياسين طويلا إذ سرعان ما استشهد

1- اسماعيل ولد شعيب، المرجع السابق، ص 33.

2- ابن أبي زرع، الأنيس المطرب بروضة القرطاس وأخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، ص 123.

3- إسماعيل ولد شعيب، المرجع السابق، ص 32.

ليجد الأمير أبو بكر بن عمر نفسه دونَ مرشد ديني وروحي وسياسي؛ في الوقت الذي أصبح فيه يقود دولة مترامية الأطراف. فقام بتعيين يوسف بن تاشفين على الجزء الشمالي من الدولة ليتولى هو الجهاد في الجزء الجنوبي، وعند عودته إلى الشمال سنة (464هـ) وجد يوسف قد أعد نفسه للاستقلال فاضطر للاعتراف بالواقع الجديد، وأخذ يخاطبه: "يا يوسف أنت أخي وابن عمي ولم أر من يقوم بأمر المغرب غيرك، ولا أحق به منك، وأنا لا غنى لي عن الصحراء مقر إخواننا"¹.

وعلى إثر ذلك سافر الأمير أبو بكر إلى الجنوب للجهاد واصطحب معه الحضرمي ليسد به الفراغ الديني والروحي والسياسي والفكري الذي نجم عن استشهاد ابن ياسين، وجعل منه الشخصية العلمية الأولى،: حيث عينه "قاضيا ومرشدا دينيا وسياسيا ومشاركا في إدارة شؤون الدولة التي أصبحت في حاجة إلى "التكنوقراط" بلغة عصرنا"².

ثانيا- البيئة الاجتماعية والفكرية للحضرمي:

هو أبو بكر محمد بن الحسن المرادي الحضرمي، نشأ بالقيروان مع بداية القرن الخامس الهجري في فترة سياسية وتاريخية وثقافية مضطربة، أيام حكم المعز بن باديس. الذي خرج على الخلافة الفاطمية بعد أن أصبح المذهب المالكي إيديولوجيا الغرب الإسلامي، بل أصبح "في نظر المغاربة مذهباً وعقيدة"³ وطنية تجسد توجههم إلى الاستقلال وعلى كافة المستويات، غير أن الفاطميين سرعان ما هجروا قبائل بني هلال إلى إفريقيا، مما أدى إلى اجتياحهم للقيروان

1- ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص 125.

2- المصدر نفسه، ص 129.

3- المصدر نفسه، ص 125.

التي غادرها الحضرمي إلى المغرب الأقصى؛ ليبدأ العمل "في خدمة المرابطين حينما بدعوا في تشييد إمبراطوريتهم التي كانت بالنسبة للمراي وللالوف غيره الملاذ والمعتصم من هجمات الأعراب الهلايين"¹.

ولا يعرف الكثير عن نشأته، "غير أننا نرجح أنه عاشها في القيروان أيام ازدهار مدرسة أبي عمران الفاسي. ومن الوارد جدا أنه أخذ بعض علومه عليه أو على أحد تلامذته على الأقل ثم ظهر فجأة في "أغامت" عالما مفوها ومفكرا بارزا، لينشئ بها حلقة دراسية مكنته من اكتشاف المرابطين له، ومن ثم نشأت علاقته بالأمير أبي بكر بن عمر الذي اصطحبه معه إلى الصحراء واتخذ منه مستشارا وقاضيا لا يعقد أمر دونه"².

لم ينل الحضرمي من اهتمام الدارسين الشيء الكثير سواء على مستوى الدارسين القدماء أم المحدثين، وكلما نجده عنه عبارة عن معلومات مشتتة وتراجم مقتضبة. على الرغم من أنه عايش أزهى فترات تاريخ الدولة المرابطية في المغرب الأقصى.

ويذكر ابن شكوال أنه كان أحد أعلام الفقه وإماما في أصول الدين"³، وكذلك نجد الشيء نفسه عند ابن بسام الذي يقول: "وكان أبو بكر هذا فقيها فطنا، وشاعرا لسنا، جمع براعة الفقهاء، والشعراء النبهاء"، ويضيف ابن الأبار على ذلك: "أنه كان رجلا نبيا، عالما، وإماما في أصول الدين وله نهوض في

1- ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص 135.

2- عصمت عبد اللطيف دندش، دور المرابطين في نشر الإسلام في غرب إفريقيا من 470 إلى 515هـ، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1988، ص 105.

3- محمد الأمين بليغ، النظرية السياسية عند المرادي، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1982 ص 36.

علم الاعتقاد والأصول، ومشاركة في الأدب وقرض الشعر، وكان ذا حظ وافر من البلاغة والفصاحة¹.

هذا هو أغلب ما تذكره التراجم عن الحضرمي، وتعتزف جميعها بريادته العلمية والفقهية والفكرية وبدوره السياسي في فضاء الدولة المرابطية بعد وفاة عبد الله بن ياسين.

وتختلف التراجم حول تاريخ استعانة الأمير أبي بكر بن عمر بالحضرمي. فمنها من يرى أنه استعان به في فترة عودته الأولى إلى الجنوب (454هـ).

و "الأمر الأكثر ترجيحاً أنه استعان به بعد وفاة ابن ياسين مباشرة بغية سد الفراغ الديني والروحي والفكري والسياسي الذي خلفته"². وأياً ما كان الاحتمال الأرجح، فإن الحضرمي كان صاحب مدرسة في "أغمات"، وقد وصل إلى الجنوب بصحبة أبي بكر بن عمر بهدف الانتفاع بعلمه، وقد خصه بمكانة بارزة، تتناسب مع مكانته العلمية والروحية، وإن تجاهلته التراجم التي أرخت للعلوم والثقافة بالمغرب والأندلس.

إن إشكالية على من أخذ الحضرمي علومه تبقى معلقة، وكل ما توفر هو روايات مختلفة وناقصة، وأكثرها دقة رواية تلميذه: "يوسف الكلبي، المتكلم النحوي أبي وجاج الضرير الذي يعترف بأنه أخذ عن الحضرمي كتاب فقه اللغة للثعالبي،

1- أبو القاسم ابن عبد الله ابن شكوال، ج2، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة، 1966، ص 104.

2- إسماعيل ولد شعيب، الخطاب السياسي، المرجع السابق، ص 47.

وكان الحضرمي قد أخذه عن أبي القاسم عبد الرحمن بن عمر بن محمد التميمي القصديري¹. وهو الشيخ الوحيد الذي تذكره التراجم كشيخ للحضرمي. ويعترف أبو القاسم الكناني بأخذه عن الحضرمي، حيث يقول: "حدثني مشافهة بكتاب فقه اللغة لأبي منصور الثعالبي عن أبي القاسم عبد الرحمن بن عمر التميمي القصديري².

والقصديري هذا تعلم بالقيروان الأمر الذي يرجح الاعتقاد بأن الحضرمي قد تعلم أو عايش على الأقل فترة وجود أبي عمران الفاسي (ت: 420هـ) بها بصورة مباشرة أو غير مباشرة، ويكون ذلك هو الجسر الذي ربطه بالمذهب الأشعري وبفيلسوفة الباقلاني³. وبهذا تكون نزعة "أصول الدين وأصول الفقه، والنزعة الكلامية" قد دخلت المغرب والأندلس على يد الحضرمي. "وكان المرادي أول من أدخل علوم الاعتقادات بالمغرب الأقصى، فنزل "أغمات"⁴.

ويذكر أن للحضرمي عدة مصنفات علمية مثل: "الأرجوزة الصغرى التي ألفت في الاعتقاد، وكتاب التجريد، والأرجوزة الكبرى"⁵. كما يذكر أن له في القدر أشعارا وأراجيز ليست بالقليلة⁶، ولم يبق من آثاره العلمية إلا كتاب "الإشارة في

1- ابن بسام، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، القسم الرابع، ج1، تحقيق حسن عباس، بيروت، لبنان، ص 363.

2- أوردته سامي النشار في تحقيقه لكتاب الإشارة في أدب الإمارة لأبي بكر محمد ابن الحسن المرادي الحضرمي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، 1981، ص 20.

3- إسماعيل ولد شعيب، المرجع السابق، ص 48.

4- محمد الأمين بلغيث، المرجع السابق، ص 43.

5- ابن بشكوال، كتاب الصلة، المصدر السابق، ص 605.

6- المصدر نفسه، ص 604.

تدبير الإمارة"، ومختصر في أصول الدين بمكتبة القيروان بفاس بعنوان: "اختصار تنبيه الأنام".

وإذا كانت التراجم لا تسعفنا إلا بالنزر القليل عن جهوده العلمية المختلفة، فإن كتابه الآنف الذكر يمنحنا أرضية خصبة لاكتشاف الأبعاد المختلفة لفكره.

إن الكتاب المنوه عنه، يحتوي في شكله البنيوي على مقدمة وثلاثين فصلا، صيغت في شكل منهجي محكم، يسهل على القارئ استيعابه وحفظه، وتفهم معانيه في وقت قياسي كما يؤكد الحضرمي نفسه.

والمقدمة عمل علمي تأطيري، الغاية منه إقناع القارئ بأهمية العلم والعلماء، ومستعينا في ذلك بما يحفظه من القرآن الكريم ومن أحاديث نبوية شريفة، وآداب، وحكمة ورواية تنوه بقيمة الحكمة والمعرفة. أما الثلاثون فصلا المشكّلة لصلب الكتاب ؛ فيمكن اختزالها في صورة جزأين اثنين.

الأول: الجزء النظري وبعالج الإشكالية السياسية في فضائها الفلسفي العام بهدف بيان طبيعة "الإمارة- الدولة"، من حيث ضرورتها ومجالها.

أما الجزء الثاني: فهو عملي وتطبيقي يتمحور حول تحويل ما هو على المستوى الفلسفي المجرد، إلى مجال الممارسة السياسية الإجرائية، من حيث الأساليب العملية، والفنية التي تضبط بها مختلف أجهزة الدولة، بما يجعل كل فئة في المجتمع في مكانها الصحيح تحقيقا لأفضل أداء سياسي ممكن.

إن الكتاب يعطينا بعض المؤشرات الأساسية عن المنابع الفكرية والثقافية والعلمية التي اعتمد عليها الحضرمي، وإن بدرجات متفاوتة. فنحن نجد حضورا بارزا للمذهب الأشعري ولابن المقفع وبدرجات أقل نجد المواردي والفرابي، وحتى أرسطو وأفلاطون. مما يعني استيعابه لأصول الثقافة العربية الإسلامية في مختلف أبعادها الشرعية والفلسفية والأدبية والفكرية فضلا عن وعيه بروافدها المختلفة، والمحصلة أطروحة علمية وسياسية تحاول تمكين الأمير من السيطرة على مختلف أركان دولته.

ثالثا- العقلانية السياسية عند الحضرمي:

لكل عمل علمي مرتكزات تتموضع في "شكل ثابت، ومتغيرات. والمرتكزات: إما دوافع موضوعية، أو ذاتية، أو سيكولوجية واعية أو غير واعية. في حين تكون المتغيرات العملية: طرقا أو أساليب أو مناهج إجرائية يتم العمل بها"¹.

وتأسيسا عليه أنجز الحضرمي إشكاليته العلمية بغية تدشين خطاب سياسي مشحون بمضامين ودلالات سوسيو اجتماعية، سندها عقلانية موضوعية يتماهى فيها ما هو ديني بما هو أدبي، بما هو فلسفي، والمحصلة: خطاب سياسي له أبعاد "ظرفية وتنظيرية"، ويقدم حولا لمختلف القضايا الاجتماعية والسياسية والفكرية والتربوية والأخلاقية بمنهجية عقلانية موضوعية. فكيف عالج الحضرمي تلك الإشكالات؟.

أ- العقلانية السياسية عند الحضرمي: لمفهوم العقل دلالات وأبعاد مختلفة، وإن كان أهمها هو أن: "العقل (...)" قد سمي بذلك تشبيها بعقل الناقة، لأنه يمنع صاحبه من العدول عن سواء السبيل، كما يمنع العقل الناقة عن الشرود (...). وللعقل أوجه ثلاثة: الأول- يرجع إلى وقار الإنسان وهيئته، ويكون حده أنه هيئة محدودة للإنسان في كلامه واختياره وحركته وسكناته. والثاني- يراد به ما يكتسبه الإنسان بالتجارب من الأحكام الكلية، فيكون حده أنه معاني مجتمعة في الذهن تكون مقدمات تستتبط بها الأغراض. والثالث- يراد به صحة الفطرة الأولى

1- محمد عابد الجابري، نقد العقل العربي، ج3، نقد العقل السياسي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 1990، ص 5.

للإنسان فيكون حده أنه قدرة تدرك بها صفة الأشياء من حسننها وقبحها وكمالها ونقصانها"¹.

فالعقل - إذن - خاصية طبيعية وكسبية منحها الله للإنسان ل يتميز بها عن مختلف المخلوقات الأخرى. "أقول إن الأحياء الناطقين والحكماء المتقدمين فرقوا بين البهيم والإنسان بالعقل"².

إن النزعة العقلانية لدى الحضرمي تعلن عن نفسها بصورة لا لبس فيها ومدفوعة بتوجه منهجي صارم، غايته تجاوز اختلالات الواقع الاجتماعي والسياسي الذي عرفته الدولة المرابطية التي ندب نفسه لإصلاح أحواله.

إن إيمانه بدور العقل يقوم على اعتقاده بأن الإنسان الذي لا "يستعمل فكرته فيما له أو عليه ماتت فطنته"³. والفتنة ها هنا مقولة عقلانية إنسانية، وكسبية توجه الإنسان الذي "ركب فيه جزءا من سوء الطبيعة، ولن يقدر العاقل على دفعه إلا بالمجاهدة"⁴.

وعملية المجاهدة/ التجاذب تلك بين طبائع الإنسان المختلفة تجعل عملية رفع الطبائع السلبية منها عملا عقلانيا وإيراديا، وقصديا ينبغي أن يكون السمة الأساسية للإنسان بما هو كذلك.

فالحضرمي يقدم مشروعا يعتمد على العقلانية الكسبية التي هي: "العلوم الحكمية الفلسفية، والتي يمكن أن يقف عليها الإنسان بطبيعة فكره ويهتدي

1- جميل صليبا، المعجم الفلسفي، دار الكتاب اللبناني - بيروت ص 40.

2- أبوبكر محمد ان الحسن المرادي الحضرمي، الإشارة في تدبير الإمارة، تحقيق رضوان السيد، دار الطليعة بيروت - لبنان 1981 ص 71.

3- المرجع نفسه، ص 13.

4- أبوبكر محمد المرادي الحضرمي، الإشارة في تدبير الإمارة تحقيق سامي النشار، المرجع السابق، ص 9.

بمداركه البشرية إلى موضوعاتها ووسائلها، واتخاذ براهينها ووجوه تعلمها حتى يقف نظره وبحثه على الصواب من الخطأ فيها من حيث هو إنسان ذو فكر¹، ومؤهل لتمييز الحقائق من الأوهام، ومدرك لمعاني الأشياء، وقادر على مقارنتها واستنباط الأحكام الوجودية والحياتية منها².

إنها - إذن - رؤية عقلانية كسبية موضوعية، تؤمن إيمانا مطلقا بأن العقل وحده هو الذي يكتسي صبغة علمية موضوعية تستجيب لهموم وتطلعات الإنسان المتجددة باستمرار.

ب - المضامين السياسية لمفهوم العادة عند الحضرمي : يحتل مفهوم الطبيعة المضافة/ العادة مكانة محورية نظريا وعمليا تتمظهر فيما يعتبره الحضرمي سببية طبيعية من جهة، وكسبية من جهة أخرى، ومجالها الأكثر أهمية الممارسة الاجتماعية.

أن التوجه الذي يوطر أطروحة الحضرمي المعبر عنها يستقي من مصادر متعددة، أهمها: الوسط الاجتماعي المرابطي الذي دشّن فكره في أحضانه، والذي عرف عملية تحول جذرية على مختلف المستويات، وكانت محصولته دولة قوية، تتوسع بصورة مستمرة.

إن ضبط المفاهيم وموضوعة مختلف دلالاتها أمر ليس بالسهل، بالنظر إلى الطابع الهلامي للممارسة الاجتماعية وما يعتري مفاهيمها من نسبية، ومع ذلك يحدد الحضرمي مفهوم العادة بقوله: "قالت الحكماء العادة طبيعة خاصة فجعلناها

1- جميل صليبا، المرجع السابق، ص 84.

2- المرجع نفسه، ص 86.

كالطبائع الربعة اللازمة، وفي الحديث: ولكل امرئ ما اعتاد، ووجدنا أن العادة تسهل الأمور الصعبة وتصعب الأمور السهلة¹.

وللعادة وجوه عدة منها: "العادة هي: التكيف العام ماديا ومعنويا. العادة: ظاهرة حيوية خاصة غير مصحوبة بالوعي، تتميز بتكرار بعض الحركات الناشئة عن الأسباب الخارجية تكرارا تلقائيا، وكبعض الحركات الآتية التي لا يحتاج المرء في القيام بها إلى إعمال الروية الفكرية. العادة: كيفية نفسية تحصل بتكرار فعل مصحوب بالوعي، ويولد لدى المرء بالدربة والممارسة القدرة على أداء ما كان في بداية الأمر عاجزا عن أدائه"².

وموضعه العادة على هذه الصورة تجسد مسعى الحضرمي الرامي إلى ضبط الممارسة الاجتماعية، ومن ثم توجيهها لضبط سلوك الأفراد في المجتمع وتوظيفه في اتجاه إنجاز مشروعه الاجتماعي والتربوي والأخلاقي وبالتالي السياسي، وقاعدة انطلاقا النظرية العقلانية الموضوعية، والتي يؤسسها على ملاحظات، وفرضيات، وتحقيقات، وتعميمات.

إن العلم الجديد والمقام على الطبيعة المضافة قد حقق على يد الحضرمي نتائج لم تكن متاحة "حيث بيّن النقد التاريخي وعلم الإنسان الحديث أن ليس هناك من تقليد إنساني استمر دائما، وأن العادة هي القاعدة الوحيدة للأخلاق والقيم، وأن

1- أبوبكر محمد ابن الحسن المرادي الحضرمي، الإشارة في تدبير الإمارة، تحقيق رضوان السيد، ص 57.

2- أبوبكر محمد ابن الحسن المرادي الحضرمي، الإشارة في تدبير الإمارة، تحقيق رضوان السيد، ص 57.

ليس هناك علم إنساني لم يبرر في بعض الأحيان أو ينقض في مراحل أخرى، وأن مقياس السلوك الإنساني مقياسا موضوعيا¹.

فلحظة تدشين العادة باعتبارها طبيعة مضافة، هي لحظة إبداع علمي جديد، علم موضوعي يوظف لأول مرة باتجاه يمتزج السياسة كنظرية وكسلوك عملي وفني يخضع كل توجهات الممارسة الاجتماعية ومختلف علاقتها، حتى ولو كانت معيارية لما هو سياسي. ذلك هو الاكتشاف العلمي الذي حقق من خلاله الحضرمي مبدأ الريادة والتفرد.

ج - ثنائية الأخلاق والسياسة عند الحضرمي:

تعدّ الأخلاق "مجموع الصفات، والتصورات الحميدة التي تواضع عليها أعضاء مجتمع بعينه باعتبارها مثله الأعلى في الحياة"²، بغية وضع حد فاصل بين ما هو خير وفاضل، وبين ما هو غير ذلك. وإن كان الفكر العربي الإسلامي لم يعالج الإشكالية الأخلاقية كنظرية معيارية مستقلة إلا أنها كانت حاضرة باستمرار في الموروث الثقافي والاجتماعي والفكري والأدبي وسندها الأكثر حضورا: القرآن الكريم والحديث الشريف اللذان لم يتركنا مناسبة إلا ويلحان فيها على وجوب تمتع المسلم بكافة الخصال الحميدة.

والشيء ذاته في الأمثال والقصص الشعبي، كما تغنى بها الشعراء. وهذا ما يستلهمه الحضرمي بقوله: "وقد ذكرت لك في هذا الكتاب من ذلك أبوابا إذا

1- نديم البيطار، الأيديولوجيا الثورية، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط4، بيروت، لبنان، 1982، ص 207.

2- أبوبكر ابن محمد الحسن المرادي الحضرمي، الإشارة في تدبير الإمارة، تحقيق سامي النشار، ص 71.

أحطت بحفظها علما وانعظفت على حفظها فهما، كانت لك ميزانا تزن به آدابك، وميدانا تروض فيه أخلاقك"¹.

إن تداخل المفاهيم ذات البعد المعياري مسألة معروفة في تاريخ الثقافة العربية الإسلامية، ويكون أكثر وضوحا كلما تعلق الأمر بالأطروحات ذات العلاقة بالآداب السلطانية التي تعتمد دوما إلى تسخير ما هو سياسي لما هو معياري. بيد أن جديد مفكر المرابطين هو عكسه للعملية، بحيث أصبح ما هو معياري مسخرا لما هو سياسي. وبالتالي تغدو "الأخلاق وسيلة والسياسة غاية".

التدبير/ السياسة : إن عملية ربط مفهوم التدبير بمفهوم السياسة في أطروحة الحضرمي مسألة إجرائية في بعدها النظري والعملي. فكل منهما يحيل إلى الآخر، بل أكثر من ذلك يعبر عن منهجية متكاملة محددها الأول العقلانية الاجتماعية التي ترى أن للإنسان من الأهلية ما يمكنه من تجاوز كل الصعاب.

وللتدبير مستويات مختلفة، فمنها ما هو وجودي، ومنها ما هو ديني، ومنها ما هو اجتماعي، لذا كانت أفعال التدبير أفعالا عقلية وإرادية يسعى من خلالها الإنسان إلى تحقيق غرض ما. "وأشهر دلالاته بالجملة ترتيب أفعال نحو غاية مقصودة"².

ويقول الحضرمي- في هذا الإطار-: "إذا تقصدت هذه الوجهة من الأفعال وتدبرتها بفطنتك في جميع أحوالك، فزت بالحكمة، وأخذت نصيبا وافرا من السياسة"³.

1- أبوبكر محمد ابن الحسن المرادي الحضرمي، المرجع السابق، ص 45.

2- ابن باجه، تدبير المتوحد، تحقيق معن زياد، دار الفكر، بيروت لبنان، ص 21.

3- أبوبكر محمد ابن الحسن المرادي الحضرمي، الإشارة في تدبير الإمارة، تحقيق سامي النشار، ص

التدبير عمل سياسي بالأساس، ومن هنا هدفت السياسة إلى إيجاد أفضل الحلول الممكنة للمشاكل التي تواجه الجماعات والأمم وهي في مساعيها لبلوغ أفضل مراتب الرقي والأزدهار. والسبيل إلى ذلك من منظور الحضري هو امتلاك ملكة الحيلة والتي هي أمور لا غني عنها لرجل الدولة... ف"الدهاء اسم لوضع الأمور في موضعها، والكف عما لا نفع فيه لما فيه النفع"¹.

إن المكر والمكيدة، والدهاء، وبالتالي استغلال الفرص لتحقيق أكبر فائدة سياسية ممكنة، إنما هي حقائق عقلانية موضوعية يشير بها الحضرمي إلى أميره. بل ويفصل في القول بتأكيدده على أن: "وجوه الحيل أكثر من أن يحاط بها، وإنما هي مواد للعقل ونتائج للفكر"².

ويتقديم الحضرمي لحقيقة الممارسة السياسية بهذه الجرأة والوضوح إنما يهدف بالأساس إلى التعامل مع الفضاء السياسي عامة، وإن كان مشروعه في الأصل، مشروعا لأمر بعينه، وفي لحظة من لحظات تأزم الدولة المرابطية. ومع ذلك تمكن الحضرمي من تحديد القواعد العامة التي ينبني عليها العمل السياسي نظريا وعمليا، سواء كان ذلك العمل مرتبطا بدولة قائمة فعلا أم بأخرى في طور التشكل.

ويستلهم في هذا المقام ما خلده التراث الإنساني حيث يقول بأن السياسة: "منظومة تحكم، وآراء مسبوكة تفهم تكسب بها عقول الأولين، وتحفظ بها آراء المتقدمين الذين كسبوها بالنظر، وجربوها بطول العمر، وأبرزوها من غيابات

1- المرجع نفسه، ص 156.

2- أبو بكر محمد ابن الحسن المرادي الحضرمي، الإشارة في تدبير الإمارة، تحقيق سامي النشار، ص 156.

الجب، واكتنزوها كما يكتنزون الذهب، فإنهم كانوا أطول أعماراً، وأكثر بأعمارهم للأمور إعتباراً، ووجدناهم قد خلفوا في الآراء والحكم الكتب الباقية"¹.

ويضيف إلى ذلك: "واعلم أنك إذا قست الأمور فهمت المستور وإذا فهمت المستور بلغت السرور، وتجنببت المحذور، وتلك نهاية المراد، وغاية الاستعداد"². ولكي يتوفر للأمير القدر الكافي من الحكمة وسداد الرأي ينصحه: بـ "مساءلة العلماء، ومجالسة الحكماء، وإدمان الفكرة في خلواته، واستشارة ذوي الرأي من ثقافته"³.

إن الحضرمي عند ما ألزم أميره بضرورة تحصيل العلوم باعتبارها جسره الوحيد الموصل إلى معالي الرتب لم يكن خطابه محصوراً حول أمير بعينه وإنما كان موجهاً إلى القاعدة العريضة من المجتمع المرابطي. ويمنحنا ذلك شرعية التأكيد بأن مشروعه قد سعى إلى إيجاد مجتمع فاضل يسوسه رئيس/ فيلسوف يشيع كافة قيم التسامح والعدل.

إن الاعلاء من قيمة الإنسان مسألة جوهرية في فكر الحضرمي الذي يؤكد بأنه: "لا يحسن التجبر بالأحرار ولا يحمل إلا على الكفار. التجبر داع للهلاك، وضامن للمقت، ومؤدي للحسد، ومذهب لحسن الأدب (...) ومن خشنت عريكته وأزور جانبه أمله أهله وقل مصاحبه، وليس للعنف شمل، ومن عادة القلوب أنها تكابر من أستعلى، وتؤالف من أحسن إليها. والخضوع قبيح من الأحرار، ودلالة على الفقر ومخبر عن دناءة النفس ومنبئ عن سقوط الهمة، وقد قيل: إن

1- أبوبكر محمد ابن الحسن المرادي الحضرمي، الإشارة في تدبير الإمامة، تحقيق سامي النشار، ص 54.

2- المرجع نفسه، ص 58.

3- المرجع نفسه، ص 58.

الخضوع لا يحسن إلا للعالم، والسلطان العادل، أما غير هؤلاء فالخضوع لهم قبيح"¹.

د - أحكامه المعيارية حول أنظمة السلطة: ولم يفت الحضرمي أن يقوم بعملية تصنيف معيارية لأشكال الدول، وقد قادته عملية التصنيف تلك إلى:

أولاً-سلطان الجور والسياسة؛

ثانياً-سلطان الخلط والإضافة؛

ثالثاً-سلطان العدل والأمانة.

وقد رفض الشككين الأولين وتبنى الثالث. مع أنه يقدم النصائح لسلطان الجور والسياسة، وهي نصائح ليست محايدة بالنظر إلى توجه الحضرمي الداعي إلى مبدأ استغلال الفرص في عالم الممارسة السياسية كلما سمحت الظروف بذلك.

أما الجزء الثاني الذي أشرنا على أنه فصل عملي، فقد أهتم فيه الحضرمي ببيان القواعد الإجرائية التي تحكم الهيكلية العامة للدولة، من حيث توزيع الأدوار بين مختلف الفاعلين فيها، بدءاً بالأمير الذي يمنحه موقعه الإشراف على الجيش، وحماية الدين ونشره، وإقامة حدود شرع الله، وتعيين القضاة كما يحدد دور المستشارين، والسفراء، والخاصة، والكتاب، والعامة والشرطة والجنود. والقاعدة الأساسية التي تحكم كلا من هؤلاء وأولئك هي أهليتهم للموقع الذي ينتدبون له، والإخلاص للأمير، وبدون ذلك يتعذر على السياسي/ الأمير القيام بمسؤولياته كما ينبغي.

1- أبوبكر محمد ابن الحسن المرادي الحضرمي، الإشارة في تدبير الإمارة، تحقيق سامي النشار، ص 131.

الخاتمة: وهكذا نكون قدّمنا إضاءة لجوانب مهمة من الفكر السياسي للإمام الحضرمي من خلال كتابه "الإشارة في تدبير الإمارة" الذي يعد إلى حد الساعة المصدر الوحيد في فن السياسة إبان الحقبة المرابطية في أرضهم. وقد شمل هذت الإسهام نبذة عن الفضاء السياسي ونشأة الدولة المرابطية، والبيئة الاجتماعية للفكر الحضرمي. كما تناول هذا العمل العقلانية السياسية عند الحضرمي من خلال دلالات العقل ومفهوم العادة وثنائية الأخلاق والسياسة وأشكال الأنظمة السياسية.

ولا شك أن مزيدا من البحث في الفكر السياسي للإمام الحضرمي سيكشف جوانب مهمة من من تنظيره للدولة المرابطية وخلفيته السياسية الدينية.

قائمة المصادر والمراجع:

- 1- ابن أبي زرع، الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس.
- 2- إسماعيل ولد شعيب، الخطاب السياسي لدى الحضرمي الأزوكي، دراسة تحليلية نقدية مقارنة في فكر أبي بكر محمد ابن الحسن المرادي الحضرمي، المطبعة الوطنية، 1997.
- 3- ابن بسم، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، القسم الرابع، ج1، تحقيق حسن عباس، بيروت، لبنان.
- 4- أبو القاسم ابن عبد الله ابن شكوال، ج2، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة، 1966. 5-
- 5- أبوبكر محمد المرادي الحضرمي، الإشارة في أدب الإمارة لأبي بكر محمد ابن الحسن المرادي الحضرمي، تحقيق سامي النشار، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، 1981.
- 6- محمد الأمين بلغيث، النظرية السياسية عند المرادي، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1982.

- 7- محمد عابد الجابري، نقد العقل العربي، ج3، نقد العقل السياسي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 1990.
- 8- عصمت عبد اللطيف دندش، دور المرابطين في نشر الإسلام في غرب إفريقيا من 470 إلى 515هـ، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1988.
- 9- جميل صليبا، المعجم الفلسفي، دار الكتاب اللبناني - بيروت.
- 10- أبوبكر محمد المرادي الحضرمي، الإشارة في أدب الإمارة، تحقيق رضوان السيد، دار الطليعة بيروت - لبنان، 1981.
- 11- نديم البيطار، الأيد يولوجيا الثورية، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط4، بيروت، لبنان، 1982.
- 12- إين باجه، تدبير المتوحد، تحقيق معن زياد، دار الفكر، بيروت لبنان.